للشاعر محمد كاظم جواد

عن دار تموز في سوريا صدر للشاعر العراقي محمد كاظم جواد مجموعة شعرية جديدة تحت عنوان «بريق أسود» بطبعتها الأولى لسنة 2018م، أكد من خلال نصوصها أن جمالية الشعر وشاعرية المفردة هي السلطة التي بموجبها يرقى النص بالذائقة ويباغت المتلقي من حيث لا يتوقع، وهذا هو الادهاش في الشعر الذي تتشكل منه جماليته .

إن الرؤيا الجمالية هي الرؤيا الإبداعية الخلاقة التي ترتقي بالنسق الشعري، وترقى بمستويات مؤشراته الجمالية، ولا ترتقي الرؤيا الجمالية إلا بمنتوج جمالي، وشكل جمالي جذاب؛ وهذا التفاعل والتضافر بين الإحساس الجمالي والشكل الجمالي هو الذي يرقى بالحدث الشعري، ومثيراته الجمالية، ولا نبالغ إذا قلنا:

إن شعرية أي منتج إبداعي تتحدد بالرؤيا الجمالية، والمقامرة الجمالية الناجحة لا تكتسب شعريتها إلا ببكارة هذه الرؤيا، وجدتها، ومدى مراوغتها لذهن القارئ، والتلاعب بالتوقع ولا أغالي اذا قلت

أن مفردة الشاعر محمد كاظم مقامرة سيرا على منهج كبار الشعراء، واذا كانت المقامرة في استخدام اللفظ فهناك مقامرة آخري في المعنى «خارج توقع المتلقي»؛ ولا شك أن المقامرة الجمالية المثمرة هي التي تنبني على رؤيا جمالية، وحساً جمالياً مثيراً بالمنتج الفني المثير، يقول (مارتيان): «إن القيمة الفنية هي وحدها التي تتخذ مكانها، لكن هذا يحدث عن طريق قوة عجيبة تربط بين تلك القيمة بوصفها نابعة عن الصفة الإبداعية الشاعرية، والعمل الشاعري الذي يطالب بالسيطرة على الحياة الإنسانية كلها، ويتخذ لنفسه وظيفة يعمل بها، ليهيمن على مصير الإنسانية كلها، فقد أقام كل من (بايرون) و(جوتة) أنفسهم أبطالاً أعظم من الأبطال التي صوروها في أعمالهم، وادعى (أرنولد) أن الشعر يستطيع إنقاذ العالم عن طريق ممارسة جميع الوظائف الأخرى للعقل، وعلى مستوى التعبير الشاعري».

يقول أدونيس عن الرؤيا الجمالية «هي المغايرة والاختلاف، أن تكون حداثياً يعني أن تكون مختلفاً أو اختلافياً في رؤاك ومنظوراتك الإبداعية عما سواك؛ والشعر – وفق هذا المنظور – سلسلة انبثاقات، أو مفاجآت، وليس خيطاً واحداً يستمر باللون ذاته، والنسيج ذاته. وتبعاً لذلك، يصح القول: إن المشكلة التي تواجه المبدعين العرب هي أن ينتجوا ما يختلف، وهذا هو مدار الإشكالية الإبداعية، والحقيقة

أن محمد كاظم بطبيعته الشعرية مغاير مختلف في الطرح ومواضع المغايرة في شعره كثيرة يقول:

«دائما أفكر أن استنشق عطر النسيان

مع أني امتلك ذاكرة متوقدة

قد تشتعل سريعا مخلفة وراءها حرائق

تصل الى حدود الهذيان

... وحينما أشهق أشعر بعطب

في جهازي التنفسي

فأحتاج الى من يسعفني

بتنفس اصطناعي ...ص5.

في هذا المقطع يتجسد الجمال في تناسق المفردات ووقع المعاني المغاير وهنا يتضح للمتلقي الجمال المبني على أسس الوعي بمديات المفردة ومعبّرعن التناسق والانسجام، كذلك عمل كمؤشر على الرؤيا الشعرية المنظمة للكلمات، والعبارات، والجمل بشكل لائق، أو رائق فنياً، وتبعاً لهذا؛ فإن:» التناسق الجمالي بين أجزاء البناء اللغوي للمقطع الشعري أعلاه تعبر عنه المفردات من حيث الإيقاعات الشعرية المتدفقة من وقع كل مفردة وارتباطها الوثيق مع المفردة المجاورة دون

أي أرباك،، وكل لفظ أدى عمله الخاص به، وارتبط بوثاقة مع الاخر، ومن هنا، فقد عملت أجزاء النص الشعري لصالح المجموع، وعلى هذا الأساس، فإن جمالية الإيقاع لا ترتبط بمقاييس ثابتة يقوم على الخطأ والصواب، كما في الوزن الخليلي الذي يقوم على الصحة والاعتلال، لأن الإيقاع لا يقوم على قوانين محددة يمكن – من خلالها استشعار التتابع الإيقاعي كما في القصيدة العمودية.

وفي نص آخر يقول:

«سأقبلك وأنا ارتعش من فرط وضوحي/ حين تحط على شفتيك النحلة وتترك خيطا من عسل حار/ سأسارع الى ارتشافه» ص46.

ثمة إشعاعات جمالية يوجهها النص إلى متلقيه؛ وهذه الإشعاعات تحققت بفضل الاحساس بجمال المفردة ودقة الأسلوب للخروج من نسق الدلالة المباشرة إلى ما يحقق المفاجأة المعنوية، فقد توسعت الرؤيا للمعنى لتنفتح على صورة غاية في العذوبة والرقة، وهي تمنحنا جزءاً من الرؤيا، لنتابع فاعلية الكشف من خلال متابعة النص الذي تتسع مدياته الجمالية كلما تقدمنا في قراءته وكأننا أمام لوحة متكاملة الألوان والحدود.

يؤكد الكثير من علماء الجمال لا يقفون على الشكل الجمالي؛ بوصفه منجزاً فنياً نهائياً؛ وإنما يبقى في طور التوالد، والنمو، والتكاثر

المستمر؛ وهذا ما أشار إليه (بول كلي) في قوله:» لا يجوز أن ننظر إلى الشكل بوصفه إنجازاً نهائياً؛ باعتباره نتيجة نهائية، بل يجب أن ننظر إلى الشكل بوصفه سفرَ تكوين، ونشوء، بل هو تكون صيرورة، كينونة....» سأقبلك وأنا ارتعش من فرط وضوحي» شكلت القبلة دافعا للوضوح والتجلي والتسامي وصولا للنقاء الروحي الذي ارتبط بالقبلة .

وقد شكلت الرؤيا الجمالية التي كانت وليدة إحساس جمالي أولاً الى ما هو أبعد من المتوقع «حين تحطّ على شفتيك النحلة ... تترك خيطا من عسل»، ولا تكتمل الرؤيا الجمالية إلا بمعرفة الحدث الشعري الذي يعقب «خيط العسل» سيسارع لارتشافه، وهنا تؤطر الصورة الشعرية بلون ينبض بالحياة .

يقول محمد كاظم:

«عندما يصدأ قلبي

أنتقي الحزن النبيل / وأغني لدموع كسرت صمتي صمتي الثقيل

أنا ياما نزفت روحي ولكن ...ص59

وهنا يصف الشاعر بدقة صورة جمالية عن الحزن فقد حوّل الصدأ الى جمال من خلال انتقاء «الحزن الجميل» ولا جمال للحزن إلا عند الشاعر الذي يخضع كل الأشياء لما يرى وليس كما هو في الواقع

مفردات متناسقة تعبر عن إحساس بوقع الحياة حتى في الحزن ونفس مشبعة نبضاً وإحساساً، دافقاً بالأشياء الكونية المحيطة بالذات؛ ويشير محمد كاظم إلى انه يستمد رؤيته الجمالية من مخيلته الخصبة المتنامية لخلق صورة إبداعية معبرة ومقبولة حتى مع الألم، وجاء ذلك بالتأكيد نتيجة خبرات، وتجارب، ومعارف وجودية، وكونية سابقة وعميقة في إدراكها ذاتيا؛ لها القدرة على التغلغل إلى مشاعر وأحاسيس المتلقي بلا جواز مرور، ليس لاستساغتها فحسب، وإنما لإمكانية التفاعل معها وشعور المتلقي انه جزء من العملية الإبداعية بل ومكون من مكونات الصورة الشعرية .

يقول الشاعر:

التقاويم التي ضيعتني

بدلالاتها المبتلة بحبر السنوات

ماعادت تهمس في آذان الزمن الآفل

والجنون الذي هذبني / يوشك أن يطلق صيحته، ص70

الابداع الحقيقي أن تتعدد الرؤى الجالية في النص وحين ينظر له من مختلف الزوايا يطالعك بصورة جمالية مختلفة عن الأخرى وهذا ما يجسده محمد كاظم من خلال خلق وتأطير الصورة ومنحها هويات مختلفة تبعا لذائقة وثقافة المتلقي، وهذا ينم عن موروثات الخبرة

الجمالية وتراكمات الصور من خلال سعة المخيال الشعري وتلكم الخبرة التي تجعل المبدع الجمالي هو الأقدر على استحقاق لحظة الانصهار في النص والإخلاص للإبداع والتعامل مع النص كائن ينبض بالحياة، بمعنى أخذ الفكرة والتحليق بها من فردانيتها أو شخصانيتها إلى كليتها وعموميتها، ومن لحظتها الآنية العابرة ؛ إلى لحظتها السرمدية الخالدة . فالشاعر المخلص هو الذي يستثمر لحظة التجلي الشعري فيبعث فيها الحياة يقول عالم الجمال (جيمس):» إن ما هو آتٍ أهم مما هو واصل فعلاَ والمبدع الجمالي بوصفه مبدعاً يستثير الخيال؛ ويرسم بريشته الفنية دفقات مشاعره، رسماً دقيقاً يناوش حس المتلقي الجمالي؛ فهو الأقدر على ممارسة هذا الفعل الجمالي الذي يجعله بتواصل مستمر مع ما هو إبداعي ومؤثر جمالياً بالمتلقي. ولا تظهر معالم هذه الجمالية إلا من خلال المهارة والفاعلية الإبداعية في تحسين سلوكنا وسلوك الآخرين، وذوقنا وذوق الآخرين الفني، لنشعر بما هو جميل ومؤثر فنياً، وهذا ما صرح به قائلاً:» ينبغي أن ينظر إلى الفرد كظاهرة نشاطية؛ ومع التأثير المشترك للنشاطات الأخرى يستطيع الفرد أن يحسن من خصوصيته»

ومع هذا القول ازعم أن محمد كاظم ومن خلال صوره الشعرية الحية تمكن من رسم الاشكال الجمالية المعبرة ليس في النماذج التي استعرضناها بل بما ورد في هذه المجموعة التي غايرت حتى انتقاء

العنوان لها «بريق أسود «وهو انزياح الانزياح بمعنى هو خروج عن المألوف والمعتاد، وتجاوُزٌ للسائد والمتعارف عليه والعادي، وهو في الوقت نفسه إضافةٌ جمالية يمارِسها المُبدِع لنقل تجرِبته الشعورية للمتلقي والتأثير فيه، ومِن ذلك لا يُعَد أيُّ خروج عن المألوف وتجاوُزٍ للسائد وخرقٍ للنظام انزياحًا إلا إذا حقَّق قيمةً جمالية وتعبيرية. وهذا ما تحقق فعلا بدءأ من العنوان .

في المجموعة الشعرية «بريق أسود «اشتغالات نقدية كثيرة منها الأسلوبية التي جاءت عليها المجموعة والتي شكلت مغايرة في الطرح ونأيا عن التجارب المكررة في هذا الضرب من الشعر الذي خطى بثقة عالية الى نفوس المتلقين.